قراءات العدد الماضي

بقلم الدكتور عزة النص

العدد الثائر

لولا واحة نزار القباني لكان العدد الممتاز من « الاداب » لهبا في لهب .. يتواكب فيه الادب الثائر مع الحديث عن الادب الثائر ، ولا يكاد القارىء يجوز كومة نار ، وهو يتحسس اضلاعه ، حتى تقتحمه كومة نار اخرى ، تلظى فيها التضحيات والمروءات ، واحسب ان هذا القارىء كان يود لو ان المغارة كلها كانت جمرا وضراما ... ، فلا مكان لـ(قديسة) نزار في ذلك الجحيم البطولي ، الا اذا اعتبرنا من الادب الثوري ثورة الجنس لدى الفحل المكتمل على (قديسة) متأبية .. تجردت على خطوات منه وحسرت عن قباب الياسمين ، ثم استرخت على سريرها الزاهي ، تتلهى بلفافة لوكي ستراياك..

ولي عودة الى (البتول) المولعة بالتدخين.. وقبل ذلك لا بد لي من التأكيد بأن الادب القومي في زادنا العربي قد ولد ، الادب الفاعل المتحرك الذي يخفق مع رايات النصر ويسير مع الزحف في المقدمة . وعدد (الاداب) في مستهل عامها الثامن هو شهادة ميلاد .

كان لنا حقا أدباء ثوار في نصف القرن الماضي ، ولكنهم لم يخلقوا مدرسة ، ولم يطبعوا اداب عصرهم بطابعهم المميز ، وهم ، بعد ، نفر قليل اذا قيسوا بجيش الادباء والمتأدبين الذين كانوا يعيشون ليالي (موسه) ويتغنون ببحيرة (لامارتين) ويتعذبون مع (غوته) لالام فيرتر، او ينظمون في الزهر والنهر وعيون المها وغصن البان ... بينما كانت مدن العرب تطوى بنيران المستعمرين ، وامة العرب ترسف في اغلال الدخلاء .

الادب القومي الذي انتزع الغلبة في محصول الادب العربي الجديد يتمثل في ابواب عدد (الاداب) التي سنعرض لها الان .

الثورة والفكر

يعتقد الدكتور سهيل ان (الثورية) ستكون السمة الرئيسية لانتاجنا الادبي الحديث ، وانا اطمئنه بان « الثورية » هي سمة انتاجنا الادبي الحديث ، بالفعل لا بالقوة ..

والقول بأن الادب لا يزال يتبع الاحداث ولا يسبقها ، ويتأثر بها ثم يؤثر في مسيرها ، لعل فيه بعض الافتئات .. وليذكر الدكتور سهيل ما نشر في (الاداب) بالذات عن ثورة ١٤ تموز في العراق قبل ان ينهض بها جيش العراق ! وليذكر كل ما ينشر اليوم – وفي مجلة «الاداب» ايضا – عن ثورة العراق الآتية ، التي يعبىء لها ادباء العروبة ويمهدون الدروب ويلمون العزائم .

وقد تولى الدكتور مندور ، في هذا العدد من الاداب ، الاستشهاد ببعض من استثاروا ثورة مصر ، وفتحوا اعين الضباط الاحرار ، وشدوا اناملهم على أزناد البنادق ، وجاءت بامثلة اخرى الاستاذة ملك عبد العزيز في مقالها (الشعر الثوري في الادب المعاصر) .

قلت قبل اسطر اننا كنا نفتقد الادب القومي المتمرد ، الى سنوات خلت ، او بالاحرى ، كنا نجد قليلا عدد الادباء الذين يخططون الهبة القومية ، ويرسمون طريق الانطلاق في وعي المجتمع السادر .

هذا اذا تواضعنا على ان الادب قصة وشعور فحسب ، اما اذا اخذنا بالمعنى الشمولي للادب ، وعرفناه بانه حصاد الفكر الحر الخلاق ، فالامر يختلف تماما ، وزاوية الرؤية تتبدل .

نحن لا نشك اقل الشك في ان الانتفاضات التي حركت اجواءنا الراكدة ، والوثبات التي خرجنا بها عن السكون المتبلد ، والانتصارات التي توجت هامنا ، كانت كلها من صنع المفكرين .

مجتمعنا الدنف ، من كشف عن علله ، ووصف له سبيل العافية ؟

وتراث العرب المشترك ، المتضخم عبر الزمان ، من الذي لملمه ووصل خيوطه ونقله الى عقول الناشئين ؟

والوحدة العربية من الذي عرف بمأثراتها الماضية ، ووضع الاصبع على مآسي انفصامها الحاضر ، واهاب بنبش امجادها وبعث تكاملها وتكافلها؟

ومن عجن خميرة الوجدان الجماعي للانعتاق من الاستعمار السارق؟

كل ذلك اضطلع به اساتذة الجيل ومؤلفو الكتب المدرسية وغير المدرسية في التاريخ والجغرافيا والفلسفة والاخلاق والاداب وعلم الاجتماع والاصلاح الاجتماعي .. وهؤلاء كلهم ادباء بالمفهوم الاوسع للادب .

استدل صديقنا الدكتور مندور على فعل الادب في التمهيد للثورات بروايتي (بومارشيه) : حلاق اشبيلية وزواج فيغارو . وميزة هذين الاثرين المخلدين انهما وضعا المجتمع والحكومة في فرانسا قبيل الثورة موضع الهزء باسلوب غير مباشر . واظن ان اديبنا الكواكبي، الذي مجدنا ذكراه في الشهر الماضي ، لم يكن اقل فعلا في نفوس معاصرين بكتابيه (ام القرى) و (طبائع الاستبداد) ، رغم انه التزم اسلوب الجد الصارم فيما كتب .

والذي اريد ان اخلص اليه هو الوطن العربي كانت له ايضا قيادة فكرية مخلصة ، ايقظت وعي ابنائه ونسجت بنية تفكيرهم وشقت لهم الاقنية الموصلة الى التمخض الحاضر .

واني في هذا التأكيد اتمركز في قطب معاكس للقطب الذي وقف عنده الاستاذ علي بدور حين كتب في مقاله (المثقفون والمجتمع العربي) : « اما القيادة الفكرية فقد كانت بعيدة عن تفهم روح الشعب وتاريخه المجيد وثقافته القومية ، لانها نهلت الكثير من مبادىء الثقافات الاجنبية.»

وليس من يخالف الاستاذ بدور حين يقرر ان « القيادة السياسية للمجتمع العربي كانت بعيدة عن الشعور بالانتفاضة الثورية التي بدأت تعيشها الامة العربية » . ولعل هذا النقد لا يزال صحيحا بالنسبة الى اكثر حكومات العرب القائمة اليوم .

ونحن معه ايضا في التأكيد على البلبلة التي تملكت الكثير من قادة

الفكر العربي ، والحيرة التي ضللت بعضهم حينا ما في متاهـــات مسدودة . ولا نستطيع الايمان بأن الامر قد تبدل بالقدر الذي نرجو حتى الان ..

ولكن تلك القيادة الفكرية ، في جملة مناحيها واتجاهاتها ، كان لهـا في النتيجة عمل مفيد . والا كيف حدثت الانتفاضة الثورية التي تحدث عنها كاتب المقال ؟ هل الانتفاضة كانت سابقة للتفكير في الانتفاضة ؟!

واما النهل من الثقافات الاجنبية ، فالحكم له او عليه امر يسير . ان الاستاذ بدور مدعو الى الموازنة بين الدول العربية المتخلفة في مجالات التطور الاجتماعي والوعي السياسي وبين شقيقاتها التي سارت خطوات ارحب نحو العدل الاجتماعي والحكم السوي . لعله بعد هذه الموازنة يجزم معنا بان النهل والعل من الثقافات الاجنبية كانا الوقود الدافع في المنطلق العربي الجديد . نظفت تلك الثقافات العقول المتكلســة ، وفتحت الاعين المغمضة ، وحفزت على النهوض العربي بتاثير المقارنــة والاقتباس والتطعيم والافادة من تجارب الامم جميعها . وبالمزيد مـن الغوص في طلب الحقيقة يجد الاستاذ بدور ان « الانتفاضة الثـورية التي بدات تعيشها الامة العربية » صنعتها ايضا مواقـف الذيـن زودوا الحصون الراسخة بسلاح الثقافة الاجنبية .

معنى الثـورة

والصراع بين الثورية والرجعية ، بين التقدميين والمحافظين ، يأتي ذكره في عشرات المواضع من عدد « الاداب » الممتاز ، سواء في الادب ام في السياسة .

فلنسر بعض الطريق مع الاخ الدكتور عبدالله عبدالدائم في بحثه عن (ثورية القومية العربية) واخشى الخشية كلها ان لا نستطيع مسايرته في اكثر من فكرة ...

يقدم الدكتور عبدالله بين يدي بحثه بضعة تعاريف : فالفكـرة المحافظة هي ثورية مقلوبة ، والرجعية هي الاعتقاد بان الطبيعة الانسانية واحدة غير متغيرة ، والرجعي هو رجل الاشياء المحدودة ، والتقدميـة هي استسلام كامل لمجرى التاريخ دون هدف ، والتقدمي هو المتحرر من اي تثبت والمؤمن بلاادرية مطلقة بالنسبة الى المستقبل.. والاصلاحي ثوري يدعو الى مستقبل معين عن طريق التطور .

لا اظن ، يا اخي عبدالله ، ان في الدنيا كلها انسانا يؤمن بضرورة او بامكان العودة الى الماضي كاملا .. سل اشد الرجعيين عراقة فـي الرجعية هل في امنياته او بمكنته ان يعود العرب في القتال الى وسائل الصحابة من المسلمين واساليبهم ؟ هل الرجعيون بالذات يرغبون فـي سكنى الخيام ومنازل التراب ، وهل يجرح عقيدتهم انشـاء المعـامـل واقامة المدن واختراع الالات ، مما لم يعرفه الاقدمون ؟

والرجعيون ـ او على الاصح من عرفوا بالرجعيين على كره منهم ـ لا يؤمنون بطبيعة انسانية واحدة غير متغيرة ، بل يفرقون بين الجواهر الثابتة والاعراض الزائلة حتى في صور النفس . ولا مطلب لهـم الا الحفاظ على جملة مثل روحية واتجاهات خلقية يعتقدونها عناصر ازليـة في النفوس وفي الحضارات ، كالشجاعة والاستقامة والعدل والامانة وعبادة اله واحد والتمسك بشعائر دينية معينة . وهم يتقبلون التحديد ضمن هذه التخوم .

ويغلب على ظني ان الاخ عبدالله قد رأى الحدود المتطرفة ، ولـذا فان تعريفه للتقدمي لا ينطبق ايضا عى زمرة معروفة من البشـر .. ، ان التقدمي لا يستسلم لمجرى التاريخ دون خطة معينة وهدف واضح، بل هو لا يستسلم لمسير التاريخ اكثر مما يحاول تغيير ذلك المسير . وهو كالثوري والاصلاحي يعتقد ان الحياة ديمومة وصيرورة في آن واحد والحضارة هي استمرار لا تكرار ، والتاريخ هو اتمام لا اعادة . وفـي جميع الاحوال لا بد من البدء بالماضي لبناء الاتي على مثال جديد . ولا يشك التقدمي بان المستقبل خير من الحاضر ، وهو يتصور اهداف ذلك المستقبل ويثق به. انه متفائل فاعل فلا يصح ان تنسب اليه الاستسلام في اي شيء . وهكذا فان الفروق تتضاءل اذا اعدناها الى اطارهـا الحقيقي . المحافظ والرجعي يلتزمان الماضي في قيمه الروحية فقط ، والتقدمي والثوري يلتقيان في تفتح الذهن للمفيد من الجديد دون تفريق بين المادي والمعنوي . التقدمي قد يؤثر ان يراعى دستور التطـور ، والثوري يريد تسريع الزمن قد يؤثر ان يراعى دستور التـطور ، الاقل ـ اصلاح الحاضر اما بالرجوع الى صفاء الماضي او باقتبـاس الصالح من الجديد .. وفي تاريخنا مصلحون سلفيون ومصلحـون تقدميون .

ولا شك ان بين جميع هذه الاصناف المذهبية تباينا في المواقـف النفسية والعقلية ، ولكن التصلب في هذه المواقف يشتد عندما تنتظـم المفاهيم في عصبيات حزبية غايتها الحكم السياسي اولا وقبل كـل شـيء ..

واذا نزهنا القومية العربية المتنامية عن انواع الحزبية ـ في مرحلة البناء على الاقل ـ فان التقريب بين المواقف يصبح اقل عســرا . والجمهورية العربية المتحدة قد حققت هذا الانسجام .

والاستاذ اورخان ميسر في مقال (الثورة تحت المجهر) ينتهي الى

هتلر حي!

هل عاد هتلر الى الظهور ؟ هل دعاته هم الذيـــن يشنون الحملة اللاسامية الجديدة في العالم على اليهود ؟

اقرا « **هتلر حي ؟** » يكشف لك عن طريقة اختفـــاء زعيم النازية عن مسرح المانيا بعد سقوط برلين بايـدي الحلفاء سنة ١٩٤٥ .

« **هتلر حي ؟** » اطرف مانشر حتى الان من اسرار الحرب العالمية الثانية .

اصدرته « دار المكشوف » ، بيروت

ان الثورة هي استعجال المراحل في التطور الانساني . وليس في ذلك من شك بشكل عام . ولكن ثورة (فرانكو) في اسبانيا كانت ردة فعل على استعجال المراحل .. اليس كذلك ؟ واكثر الثورات في تاريخنا العربي الوسيط ـ تلك التي ندعوها بالفتن ـ لا تحمل مغزى الدفق الحياتي المنهمر نحو هدف انساني مشخص . وهكذا فانه لمن الصعب على المجهر ان يكشف عن بنية الثورة بمعزل عن المجرد عن الزمان والمكان والانسان ...

ولننتقل الان الى (ثورة) الاستاذ محيي الدين محمد على (الفكر العربي المعاصر) ... والحق ان الدكتور سهيل قد برهن على عمق ايمانه بحرية الفكر حين نشر هذا المقال . اريد ان أقول باخلاص حار للاستاذ محيي الدين انني لا اعتقد بوجود شيء عام شامل يمكن ان يطلق عليه مدلول (سيكولوجيا الذهن الشرقي) ، واود باخلاص حار ايضا ان اقف على تعريف جامع مانع لما يسمونه الشرقي والشرق .. وقد كتبت اكثر من مرة انه لا وجود لشرق مطلق او لغرب مطلق في عرف الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الاجتماع على السواء.

بعد هذه الملاحظة المبدئية ، ليسمح لي السيد محيي الدين ان اوضح اراءه بعض الشيء ، فلا اشك في انه تصدى لنقد الواقع وحده ولم يقصد المساس بالمباديء . ولعلي غير واهم اذا تفهمت اقواله على انها وصف لجماعات عربية معينة لم تع الدعوة الاسلامية على حقيقتها فانساقت الى انحرافات عن الدين مصدرها تراكم الجهل بذلك الدين.

نفسية المذلة ، القبول بالظلم ، الرضى والتسليم بما كتبه الله ، اطاعة اولي الامر ، رفض العدالة لان الدين يؤكد على وجود الطبقات..

هي في نظر كاتب المقال وجوه المشكلة في (سيكولوجيا الذهن الشرقي)..

والاستاذ الكاتب لا بد موقن بالحقيقة التالية : لو قام الاسلام على رفض العدل لقبر في مهده ، ولو فهم المسلمون الاولون دعوة محمد على انها دعوة استسلام لما غالبوا البيزنطيين والفرس ونهضوا بحضارة مادية وفكرية واجتماعية يحق لنا ، بل يجب علينا ، الاعتزاز بها وتمثلها ورفدها بنسغ جديد .

قصص القارئين

في مقالها (ادبنا الثوري والموقف الحضاري) أثبتت الاديبة الفاضلة سلمى الخضراء الجيوسي التلازم الطبيعي بين الاصالة والابداع، وبذلك حملت عنا جهد البحث عن معايير فنية تصلح للحكم على النتاج القصصي المعروض في عدد (الاداب) الاخير . والقصص الخمس التي سنعرض لها ترسم صفحات نابضة من معركتنا القومية ، رآها كل كاتب من شرفته الخاصة ، وتخير لها اللون الفني الذي يناسبها . هي كلها تهدف الى اثارة نفوسنا من اجل غرض نبيل . انها فصول من عقيدة القتال التي تعمر ارواحنا . وهي كلها صحيحة الارتباط بالاجواء الساخنة التي نعيشها وبالمشكلات التي يتحسس بها كياننا ، فلا اصطناع ولا زيف ولا نقل ولا اقحام .. تتماثل جميعها في الاصالة وتتجاوى في الابداع .

قصة (الخائن) للدكتور عبد السلام العجيلي بسيطة ، ضخمة في بساطتها : محكمة (مهداوية) ـ خرساء هذه المرة ـ تستمع الى ضابط شاب يعترف بالخيانة ، خيانته للشعب ـ أي للحزب الشيوعي ـ ..

والعقدة في القصة اكثر من طبيعية : كان لذلك الضابط خطيبة من الحزب اياه .. فاستجاب لدعوة الضمير وعصى جواذب العاطفة . وليس في كل ذلك مسحة من فخامة (كورنيلية) ، وانما تسير القصة تماما كما تسير الحياة . ويحبس القارىء انفاسه على روعة وحماسة انسانية . والى هذا كله فن متمكن في تصوير المشاهد والامزجة والحركات : المرأة في ساعات اغرائها ، والعسكري تحت بزته ، والسجل والذبح ودسائس السراديب الشعوبية ومناورات رجال الحكم ..

والبراعة انك لا تحس بالموعظة الفجة ، ولا يخيل اليك لحظة واحدة انك تقرأ صحيفة سياسية .

يشكو سينمائيو بلادنا ان الجماهير العربية لا تقبل على الافلام الجادة. فليجربوا هذه القصة ، وانا زعيم بانها ستجذب الجماهير جذبا.

ومأساة العراق يقصها ايضا الاستاذ مطاع صفدي على نحو اخر :

سلمى ومجيد وحسين وفيصل وعبد القادر وعاكف .. رموز للالاف من شبابنا الجامعي ، نماذج من الجيل العربي الصاعد ، في توثبه للفداء واصلائه للمعركة ، معركة المنطلق العربي . ابناء هذا الجيل حملت بهم امهاتهم في جو محموم ، وولدوا على مقربة من ساحات القتال . سمعت آذانهم اول ما سمعت أزيز الرصاص ، رصاص المستعمرين وهم يحتلون ارضنا الطيبة بعد الحرب العالمية الاولى . واستمر الازيز يخرق اذانهم كل يوم ، الى اليوم . سلمى ومجيد وحسين وفيصل وعبد القادر وعاكف وعشرات الالوف من الابناء الاخرين ، عاشوا على اعصابهم في المدرسة الابتدائية والثانوية وفي الجامعة : مظاهرات واضرابات ثم رصاص وسجون .

ومن الجامعة يستقبلهم الاستاذ مطاع . يستلمهم وقد اكتملت جذوتهم

ـ التتمة على الصفحة ٦٨ ـ

صدر حديثا

		ق.ل
تاريخ ولاة مصر للكندي		٧٥٠
مشارق انوار القلوب	لابن الدباغ	٥٠٠
رحلة ابن جبير		٦٠٠
ديوان الخنساء		٣٥٠
رحلة ابن بطوطة		...
ديوان ابن حمديس الصقلي		...
دروب	ميخائيل نعيمة	٣٠٠
القومية العربية		٤٠٠

الناشر : دار بيروت ـ دار صادر

قرأت العدد الماضي من الاداب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

وتبلورت في نفوسهم مسؤوليتهم .

يصفهم وهم يجمعون التواقيع من زملائهم للاحتجاج على تعذيب جميلة ابو حيرد . يصفهم وهم يحاربون نوري السعيد ويسكنون سجونه الكثيرة .. ثم يصفهم بعد الطوفان وهم يعبدون الالهة الجديدة .ويصفهم اخيرا وقد اصبحوا فرائس تهرسهم اضراس اولئك الالهة ..

وفي كل ذلك لا يخرج الاستاذ مطاع عن الواقعية المرتاضة على النظرة التحليلية .

ولكن الاستاذ مطاع ليس واقعيا فحسب .. بل هو وجودي كل الوجودي ، وهو رمزي ومثالي بمعنى ما ، وهو فوق هذا صاحب فلسفة لا يزهد في التعميق ولا تفوته الخلجات المختبئة تحت الستار السابع..

اصالة مطاع صفدي ، تلك هي اتلامها العميقة ، زهي في الحق اصالة اصيلة .

انني من المتذوقين لشطحات مؤلف (الاكلون لحومهم) ، ولكني اشك في انه يكتب للجماهير. وسيظل قصاص النخبة الصبورة على متاعب الفلسفة .. وهو بذلك يحتفظ للادب بعرشه الارستقراطي ..

اللوحة التالية من قصة (سلمى) ناصعة تسمو فوق الروعة :

«..ان هذا الانسان الضخم ، كصخرة مكدسة منذ الازل الى جانبي، ينّ من ثقب في صميمه ، كما تئن الصخرة من فجوة ينبوع ، تعجب لمائه القليل كيف استطاع ان يحطم جمودها ويثقب معدنها .. ولكن حتى هذا الينبوع قد جف ، وبقي قناة صماء مظلمة تصفر فيها الريح بدون جدوى » .

ولكن الخاطرة المتفلسفة اذا جرت على لسان المتخاطبين قد تصدف المصابين بدوار الاعماق . مثال ذلك : « لو تدري يا حسين .. ان احدا من جيلنا الموحش لا يعذبه وجوده بقدر ما يعذبه عدمه ، عدمه الازرق في صميمه ، ولهذا فلن تنضب طاقة ، العدم لا يفرغ ابدا ..» قصة (سلمى) تبقى ـ وستبقى في تراثنا حتما ـ نموذجا لنوع من الادب ، ليس هو ادب المتعة السهلة ، وليس هو ادب الشعب ، وانما هو ادب الفلاسفة من الادباء ، والادباء من الفلاسفة .. الملتزمين منهم بمسؤوليات قومية واجتماعية . فعلى الذين يبتغون من الادب خدر التفكير ان ينصرفوا عن قراءة مطاع صفدي .

والقصة الثالثة : (الموت والكلمة) للسيدة الاديبة عايدة مطرجي ادريس ، لم اقرأها .. وانما احسست احساسا ماديا انني شهدتها بالفعل ...

كنت معها الى جانب زوجها وهو يكتب على المنضدة ، وكنت معها حين اندلعت الثورة ودوى الرصاص ، وكنت معها وهي تحنو على طفلتها وتحوطها بذراعيها المشفقين . مثال اخاذ للواقعية الفذة .

ولكن القصة ، على بساطتها الرائعة ، تدور حول مشكلة انسانية منتزعة من اعمق الاعماق ، وهي حدود التضحية لدى ارباب الفكر والقلم : هل من شانهم النزول الى معترك المعركة وحمل السلاح على كواهلهم الواهنة ، وتعريض قدراتهم للموت البليد ؟

صاحبة القصة لا تتحدث حديث القلب ، كزوجة محبة وكأم عطوف . وانما تترك الحكم لعقلها الواعي ، فيهديها الى ان المفكر الصق بالمسؤولية الاجتماعية من الدهماء ، وينبغي ان تكون تضحيته اغلى ثمنا ... انها في الكلمة الملزمة التي يقولها ـ ويجب ان يقولها ـ ويحرك بها الوف السواعد المقاتلة .

ان الكلمة التزام قد ينتهي بالموت على وتد او بالسجن الطويل على اهون احتمال ، ومع ذلك يبقى الفنان والكاتب والعالم ، يبقى جميع هؤلاء ممزقين بين ضرورة التضحية بحياة الالوف واثرة الاكتفاء بالكلمة .. وقد اشار الى شيء من هذا الحرج الاستاذ طارق شريف في مقاله (مواقف ازاء التضحية) .

على ان المشكلة يمكن ان تطرح على صعيد اخر : هل من حق الادباء والمفكرين عامة ، ان ينخرطوا في العمل السياسي المباشر ؟ الا يجني ذلك على الادب والفكر من حيث لا تستفيد السياسة شيئا يذكر ؟! هذا رأي الكثيرين من الناس . وتجربة اندره شينيه وشاتوبريان وهوغو ولامارتين تجربة غير مشجعة ...

الموضوع لا يزال بحاجة الى بحث .

في قصة (خبز الفداء) ، للاديبة سميرة عزام ، حب بين سعاد ورامز يلد في حرم البطولة القومية . وعاطفة الحب متوافرة ايضا في القصص التي عرضناها لها ، ولا نجد في ذلك اي افتعال .

ومدار القصة هنا البطولات الصامتة في نكبة فلسطين : رامز ، من الحرس القومي، يدرب المطوعين في النهار ويسهر على جرحى الجهاد في الليل . وسعاد متبرعة للتمريض في مشفى المجاهدين وتقوم عند الضرورة بتوزيع الزاد على المحاربين. ويتم اللقاء المحتوم ويبرعم الحب العفّ .

والصدفة الحلوة ليست هنا ..؟ كانت فتيات المدينة قد نسجن قمصانا صوفية لرجال المعركة ، وكان في جيب كل قميص بطاقة تحمل اسم الفتاة المتبرعة وعبارة مشجعة . وسعاد وهبي كتبت في بطاقتها: ارجو ان تكون ـ اي الهدية ـ من نصيب بطل ؟ فكانت من نصيب رامز.

صدفة حلوة ، ومحتملة الوقوع جدا في مدينة عكا الصغيرة .

تلك البطاقة السحرية اهابت برامز ان يكون بطلا حقا قبل ان يعرف سعاد ؟ ثم كان بعد الحب بطلا مزدوجا . وتحل النكبة ، وتقتل سعاد ملتفة بعباءتها المثقلة بالزاد ، ويبكي رامز وراء المتاريس بكاء مرا ، ويمسح عينيه الغارقتين بكم القميص الصوفي، ذلك المقدس ، ثم يتحامل على نفسه ويفتح العمرة التي حملتها الحبيبة ، ويقدم لرفاقه خبز الفداء وهو يتشج : كلوا .. ان سعاد لا ترضى لنا ان نموت جوعا .

صناع اصيلة ، تحسن تحريك الاشباح وارهاف الارواح ، تلك اليد التي كتبت (خبز الفداء) .

ومن بغداد وبيروت وعكا يحملنا قدر النضال العربي الى الجزائر . هنالك نجد (قدور) ساجيا في ظل زيتونة شمطاء ، وهو يسلم الروح، بعد ان صرع الكثير من ثيران باريس القذرة ..

وقدور ، في قصة (وعلى السفوح غرسناه) للاستاذ احمد سويد، يعيدنا إلى مشكلة المثقفين الذين يخوضون معركة القومية العربية بالسلاح حين يوقنون في ظروف معينة ان السلاح انفع من القلم .

ان قدور ، خريج الصوربون ، كان جنديا عاديا في جيش التحرير، وقد لوع الفرنسيين في موانلهم . صلبوا امه ـ ويل للخنازير ! ـ دون مرحمة ، وانتقم لروحها الطهور ، ومات دامع العين لان حرب التحرير لم تنته بعد ..

بطلة القصة ، في رأيي ، هي ام قدور ، بكلماتها القليلة القليلة التي قذفت بها في وجه جنود المظلات العتاة . واللبوة لا تلد الا اسدا.

والقصة كلها مشهد خاطف عميق التأثير من اروع كفاح نهدت له الامة العربية في تاريخها كله .

ولعل ما يسمونه (التشويه المهني) هو الدافع لي ابداء الملاحظة التالية : اعرف كجغرافي ان (كولون بشار او كولومب بيشار) تبعد نحوا من ١٠٠٠ كم عن خط موريس المكهرب في غربي تونس . والحديث في مستهل القصة كان يدور حول خط موريس . ولقد يتوهم القارىء ان قدور وجماعته متمركزون على السفوح هنالك .. ثم تحدث المعركة فجاة في (كولون بشار) على حدود مملكة المغرب ..

ثوار الشعر

هنا ايضا استمد عناصر الحكم من مقال تحليلي في عدد (الاداب) للاديبة ملك عبد العزيز : الشعر الثوري في الادب المعاصر .

هنالك الشعر الثوري المباشر الذي يهجم على الموضوع مواجهة ، مرتكزا الى الالفاظ والتعابير والصور ، الملهبة للمشاعر ، وهنالك الشعر الثوري القصصي ، المعتمد على حادثة او حوادث يرويها على نحو مؤثر، ليصل ايضا الى استثارة النقمة والحماسة في النفوس . واحسب ان الاسلوب الثاني اطول نفسا وابعد مدى واسس قيادا بالنسبة الى الشاعر بالذات .. وقصائد هذا العدد من (الاداب) يغلب عليها النوع الثاني .

ويبدو ان رواد الشعر الحر قد ثبتوا اقدامهم في (الاداب) .. حتى اصبحت منتجعهم الخاص . ولولا الشاعر الضخم سليمان العيسى لخلنا ان « الاداب » تتبرم بالقدامى وتلتزم جانب المحدثين ..

ومهما يكن من امر ، فان سليمان العيسى حجة على من يرون في عمود الشعر المألوف جحرا على الفكرة الدافقة ، وحبسا للينبوع المتفجر. انه يعلو بالشعر القديم الى سموات فوق السموات ، ويطوف دون لهث في كل الافاق ..

وفي قصيدة (صيحة الرواد) يرسم سليمان العيسى نفسه راهبا للقضية العربية الكبرى :

ماذا تريد سماء الوحي من وتر ... وفوق صدري تاريخ الاسى جثما
ماذا ؟ أسوسنة في الحقل ضاحكة ... أصوغ أنداءها للمجتلي كلما ؟
أباقة من شعاع الشمس غاربة ... اذيب فيها فراغ الروح والسأما؟
أهمسة من شفاه الحب عابثة ... أقصها فاغذي الجيل منهزما ؟
كفرت بالحقل يؤوي غير زارعه ... ويحمل الجرح ،لاتشكوى ، ولا برما
كفرت بالحب ان ينشر غلالته ... على حبيبين حام الذل فوقهما
كفرت بالشمس ان تشرق على بلدي ... الا لتلثم ارضا مرة وسما ..

هل اعطوه فوق حقه من سموه شاعر القومية العربية ؟

وارجع مرة اخرى الى « القديسة » .. لاهمس في اذن الاستاذ نزار القباني : متى كنت تصطاد الذباب ؟ هل نصدقك ياأكذب الكاذبين ؟!..

وبعد ، لايسعني الا التقاط « العينات » من محصول « الاداب » الشعري .. فهو وافر نمير : قصيدة الاستاذ عدنان الراوي « شهيد » نغم علوي يصلح لان يكون نشيد الانشاد في ثورة العراق العتيدة . وقصيدة « اغنية عربية » للاستاذ شفيق لكمالي نلفت اليها نظر صديقنا الدكتور عبد القادر القط ليضمها الى نماذجه عن تفاعيل الشعر الجديد . والاستاذ عبد الباسط الصوفي صائغ ماهر ، لايعالج الا معادن الماس والذهب والفضة ، وهي معادن ثمينة حقا الا انها في غير متناول ابناء الشعب .. وقصيدته « الحقد والفولاذ » تقطع الفولاذ .. اما قصيدة « الجرح الخالد » للاستاذ عبد القادر النعماني فالواضح ان تراكيبها تنوء بمعانيها .. بينما الاستاذ حسن النجمي قد استطاع ان يوازن بين الحامل والمحمول في « قصيدة الى الفجر » .

وفي « بعث جديد » للاستاذ محمد عمران تصوير مفتول العضلات للوثبة السمراء ... اما الاستاذ خليل الخوري فصلاته ليلة الميلاد « الى جميلة القضية » سيتقبلها الله في واسع عرشه بابتسامة رضى حزينة كما تقبلها القارىء في خشوع ..

واجد « اغنية من بور سعيد » للاستاذ حسن فتح الباب دون ملحمة بور سعيد الفخمة .. ولا بد ان اخص قصيدة « الكلمة والثورة » للاستاذ فضل الامين بمصافحة يد حارة ، وان أهنىء الاستاذ كامل ايوب على الحركة المتوثبة والعصب النابض في قصيدة « الجندي الاخير » . وقصيدة « الزنجي العجوز » للاستاذ محيي الدين فارس بيضاء ناصعة، هل هزت نفسي لالتزامها الوزن الذي ارتاح اليه؟ ابدا ، وانما لانسانيتها المفجعة . و « الموت الجديد » للاستاذ حساني عبد الملك صورة ساخنة معبرة للتمدين الفرنسي ... التمدين بالدم . وفي « احلام الشهداء » للاستاذ عبد المنعم عواد يوسف تصوير تاريخي صادق لاحقادنا واحلامنا .

كلمة الى الاستاذ محيي الدين صبحي

قلت لك اكثر من مرة في حرم جامعة دمشق انك ستكون ـ بل اصبحت ـ اديبا موفقا ، ولكنك لن تكون ابدا مدرسا ناجحا ....؟ وقد اقلقتني صرختك « وداعا ايها الادب » لانك قلبت المفاهيم ...

اصبر ياأخي . ان مهمة التدريس تجربة حياتية مفيدة كتجربة الرعي للانبياء ...؟ وما ضر مطاع صفدي ، الدائب في الخلق الرائع ، ان يكون مدرسا ...

والادب ، بعد ، هو في النوع قبل كل شيء . ولئن لم تتح لك متاعبك المهنية الا القليل القليل من الوقت لتصرفه في الادب المحض ، فاصرفه وئيدا في اثر او اثرين يكتب لهما الخلود . خذ الاسوة من « سويفت » في اسفار غوليفر ، و « دانييل دوفو » في روبنسون كروزويه، و«ملتون» في الفردوس المفقود و « بوكاشيو » في الايام العشرة ، و « أريوست » في رولان الغاضب و « لوتاسو » في تحرير القدس ، و لافونتين وفلوبير ومونتسكيو ، ومئات ومئات غيرهم من العمالقة المقلين ...

دمشق — عزة النص

طبعت على مطابع :
دار الغد للطباعة والنشر
تلفون ٢٢٩٢١